أمريكا أقوى دولة في العالم !

بقلم غالي شكري

نعم ، اميركا اقوى دول العالم ... هذه احدى « الاوليات » التي يتلقاها ابناؤنا في المرحلة الابتدائية ، وهي أيضا احدى « الحقائق » التي يركز عليها بعض الكتاب في بلادنا اليوم . ولكن الفرق بين التلميذ الصغير الذي يدرس جغرافيا الولايات المتحدة ، والكاتب الذي يفكر في الوضع السياسي لاميركا المعاصرة ، هو الفرق الذي يحدد في وضوح معنى « القوة » الاميركية . فاذا كانت الموارد الطبيعية لاحدى البلدان تمنحها ارفع درجات التفوق الاقتصادي في العالم ، وصفنا هذا البلد بأنه « اقوى البلدان » بمعنى انه اغناها . من هنا يمكن اعتبار الولايات المتحدة اقوى بلاد العالم ، ولكننا في نفس الوقت نضع بضع تحفظات : اولها ان الثراء الطبيعي ليس هو المصدر الوحيد للقوة الاميركية ، وانما شرايين الاحتكارات الاميركية التي تمتد الى « خارج » الولايات المتحدة حيث تنهب ثروات الشعوب المتخلفة وتغذي بها سادة المال « داخل » اميركا ، هي المصدر الثاني والهام للغنى الاميركي . وهو المصدر الذي يدعوها في كثير من الاحيان الى استخدام السلاح مباشرة ، أو الى استخدام أدوات وكالة المخابرات المركزية في قلب الحكومات الوطنية وتخريب الانظمة التقدمية . فالقول بأن اميركا اقوى الدول « اقتصاديا » يحتاج ـ من هذه الزاوية ـ الى تعديل يفرضه اعتماد الاقتصاد الاميركي على بنائه الاستعماري لا على موارده الذاتية فحسب . هناك أيضا تحفظ اخر يمليه علينا نظام توزيع الثروة الاميركية داخل حدود الولايات المتحدة . فبالرغم من ارتفاع مستوى المعيشة الاميركية ، الا أن الاعداد الهائلة من العمال العاطلين والازدياد المروع لنسبة ارتكاب الجرائم واشتعال ثورات الزنوج، يؤكد ان الثراء الاميركي هو ثراء حفنة الاحتكاريين الكبار والطبقة المتوسطة خاصة بعض افرادها من العلماء والمثقفين الذين يصوغون « النظام الاميركي » فكرا وايديولوجية . أما غالبية الشعب الاميركي وخاصة ملونيه فانه يعاني المزيد من الافقار مهما ازدانت بيوت البعض بالثلاجة والتلفزيون ، ومهما حصل بعضهم على العربة الخاصة . فلا شك أن الحياة التي يعيشها هذا البعض « بالتقسيط » ، حياة ترتبط تفاصيلها بشركات الاحتكار الاميركي التي تحصل مع الاقساط الشهرية للمواطن العادي على انفاسه التي تختنق يوم ان يدلي بصوته في معركة الانتخاب . معنى هذا ان الثراء الاميركي الحقيقي هو ثراء الفئات والشرائح التي تملك « الحرية » في القول والفعل . ومن ثم فاننا حين نقول بأن اميركا هي أقوى الدول « اقتصاديا » يحتاج الامر الى اعادة نظر يفرضها اقتصار الغنى الاميركي على أجزاء بعينها في المجتمع هي قمته العلوية ، دون بقية البناء الهرمي الكبير الذي يصل الى السفح ، الى القاعدة العريضة من العمال والزنوج والبرجوازية الصغيرة .

هذا التحفظان الرئيسيان على القوة الاميركية بمعناها الاقتصادي، يعنيان انه حين تشتد حركات التحرر الوطني ضراوة في مختلف بقاع العالم ، يتقلص احد المصادر الهامة في تغذية الثراء الاميركي ، وهو نهب ثروات الشعوب عن طريق الاستعمار القديم والجديد . كما يعنيان انه حين تشتد وطأة التناقضات الداخلية في المجتمع حتى يصل اوارها الى حدود الحرب الاهلية كما اعلنت ثورة الزنوج اخيرا ، فان هذا يهدد الثراء الاميركي المحدود بين أسوار الاحتكاريين واتباعهم بالتبدد والضياع . امريكا قوية اذن ، بالمعنى الاقتصادي ، بل هي اقوى دول العالم اذا شاء البعض ، ولكن دون ان ننسى هذه التحفظات التي تفرض على ضميرنا الفكري ان يعيد النظر في صياغة « القوة الامريكية » وان يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا موضوعيا الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك مع حقيقة الامر الواقع .

من الممكن ان يقال للمرة الثانية ، ان امريكا اقوى دول العالم ، عسكريا . وهذا ، ايضا ، صحيح . فلا ريب ان الاسطول السادس والسابع ومخزون البنتاجون من الاسلحة النووية ، يمنحها اعلى درجات التفوق العسكري في العالم الحديث . ولكن هذا « التفوق » مشروط بتحفظين اخرين : اولهما انه تفوق في « الكم » من زاوية رئيسية ، وثانيهما انه تفوق في « اساليب استخدام السلاح » ان جاز التعبير عن توظيف العسكرية الامريكية في قمع ثورات الشعوب « خارج » الولايات المتحدة ، وقهر النضال العادل للزنوج والعاملين من ابناء الولايات المتحدة « داخلها » ، وتصبح امريكا بهذا المعنى العسكري المحض اقوى دول العالم ، لانها تملك حصانة « المغامر » في خروجه على القانون من ناحية ، وفي حرصه على المفاجأة والمبادرة من الناحية الاخرى . فلو أننا اخذنا مثلا مضادا لنموذج الولايات المتحدة كالاتحاد السوفياتي ، فاننا نجده لا يملك سوى ربع مخزون الولايات المتحدة من الاسلحة النووية . ولكن هذا وحده نصف الحقيقة . النصف الاخر يقول ان النظام الاشتراكي الذي يمثله الاتحاد السوفياتي والصين وكوبا واوروبا الشرقية ، يغذي حركات التحرر الوطني المناوئة للاستعمار القديم والجديد بما يضاعف من نشاطها الاقتصادي المستقل ونضالها السياسي واحيانا العسكري ضد الولايات المتحدة . هذه القطعات العريضة من شعوب وحكومات اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية تمثل « القواعد الثابتة » لمعسكر القوى المعادية للاستعمار ، وهي القواعد التي قد ينخفض مستواها العسكري والتكنيكي عن مستوى القواعد الامريكية ، ولكنها تتميز في نفس الوقت بالثبات وصلابة الدفاع عن الحق المشروع .. وهو فرق جوهري بين الروح المعنوية التي يتمتع بها المناضل الفيتنامي في جبهة التحرير وبين هذه الروح عند الجندي الامريكي . حين نقول ان امريكا اقوى دول العالم عسكريا ، يجب أن نضع في اعتبارنا هذه الحقائق مجتمعة ، وهي ان الاتحاد السوفياتي « يناطح » الولايات المتحدة نوويا ، ولكن من حيث الكيف لا من حيث الكم . وهي ايضا القطاع العريض من الشعوب التي تمثل في مجموعها قاعدة ضخمة ضد الاستعمار ، خاصة اذا كانت احدى القلاع المناضلة كالصين قطعت شوطا يعترف به اعداؤها في التسليح النووي . ما يغلف القوة العسكرية الامريكية بهالة اسطورية هو الوجه المغامر الذي يخرج بها عن دائرة القوانين الدولية والالتزام بميثاق الامم المتحدة ، وهو الوجه الذي ينطلق بها الى آفاق المبادرة والمفاجآت التي تتخصص وكالة المخابرات المركزية في صناعتها . وهي المفاجآت التي اعتمدت بغير شك على تناقضات المعسكر الاشتراكي الداخلية ، وتناقضات حركات التحرر الوطني الداخلية ، والتناقضات بين المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر . وهي المفاجآت التي اعتمدت على ما يمكن تسميته بالابتزاز النووي حين التزم الاتحاد السوفياتي بسياسة التعايش السلمي بعد تضحيات هائلة بلغت عشرين مليونا من القتلى السوفيات

في اتون الحرب العالمية الثانية . فالتطور الداخلي للاتحاد السوفياتي والطبيعة الخاصة بالنظام الاشتراكي جميعه لا يتيح الفرصة للمغامرة العسكرية الواسعة التي يبلغ اتساعها فناء العالم بأسره ، كما لا يتيح الفرصة للمبادرات الجنونية والمفاجآت . هذا لا ينفي ان هناك اخطاء فادحة تورطت فيها القوى المعادية للاستعمار ، ولولا هذه الاخطاء لكان من الممكن التصدي للمغامر واليقظة لمبادراته ورد مفاجآته ... ومن المؤسف حقا ان تشترك الدولتان الاشتراكيتان الكبريان في خطأ واحد، هو ما تعبر عنه نشرات السوفيات التي تبدأ بديباجة دائمة تحصي عدد الدول التي استقلت حديثا بالارقام حتى ليظن المرء ان الاستعمار قد انتهى تماما ، وهو ايضا ما تعبر عنه الصين في قول قادتها ان الاستعماريين نمور من ورق . امريكا قوية لا ريب في ذلك ، بل هي اقوى دول العالم عسكريا اذا شاء البعض ـ لسبب او لاخر ـ استخدام هذا التعبير ، على ان نتذكر دوما هذه التحفظات التي تحيط القوة العسكرية الامريكية بشبكة من قوة المعسكر الاشتراكي المسلحة ، ونضال الشعوب ، والصراع الداخلي في المجتمع الامريكي الذي بلغ اوجه في ثورة الزنوج الاخيرة . علينا ان نتذكر دوما هذه التحفظات لانها ـ موضوعيا ـ لا تمنح الرجحان المطلق لكفة القوة الامريكية في موازين الحرب والسلام . وعلينا ان نتذكر دوما هذه التحفظات لانها تفرض على ضميرنا الفكري ان يعيد النظر في صياغة « القوة الامريكية » وان يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك من حقيقة الامر الواقع .

بقيت القوة السياسية للولايات المتحدة ، فيقال ـ للمرة الثالثة ـ ان امريكا اقوى دول العالم سياسيا . وهذا ما لا يجادل فيه احد .. فالدبلوماسية الامريكية تستطيع ان تفرض الرأي على المنظمات الدولية، كما تستطيع ان تفرض الشروط على حكومات بعض الدول ، الصغيرة والكبيرة . وهذا يمنحها اكبر درجات التفوق السياسي في العالم المعاصر . غير ان هذا التفوق مرهون بجملة اشياء اهمها « ثبات » الوضع السياسي لحكومات الدول التي تقبل الضغط الامريكي وتستسلم له ، و « ثبات » الوضع السياسي للمجتمع الامريكي نفسه ، هذا « الثبات » الذي يحتمل الشك في كل لحظة توجه فيها احدى الضربات الى السياسة الامريكية ، سواء حين يثور شعب من الشعوب ضد حكوماته العميلة او المتهادنة مع الاستعمار ، او حين تقف دولة كفرنسا الديغولية موقفا مستقلا عن موقف الولايات المتحدة ازاء بعض المشكلات الرئيسية المعاصرة مثل حرب فيتنام وحلف الاطلنطي وازمة الشرق الاوسط ، او حين يتم مصرع رئيس جمهورية الولايات المتحدة على مرأى من البوليس الامريكي ، او حين تستخدم الطائرات والدبابات في ضرب ثورة الزنوج . هذه الضربات التي تتوالى ضد السياسة الامريكية لها اثارها بغير شك على الحركة الدبلوماسية للولايات المتحدة بالاخفاق حينا والشلل الجزئي احيانا ، والشلل التام احيانا اخرى .

ولعل حركة سير الشعوب المنظمة في خط مضاد للسياسة الامريكية منذ مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ الى بقية مؤتمرات التضامن الافرو اسيوي الى مؤتمر القارات الثلاث ، لعل هذه الحركة المنظمة بكل ما تجسده من انتصارات فعالة لمعسكر التحرر الوطني والاشتراكية ، هي التفسير الموضوعي لتشنجات الاستعمار الامريكي التي عبرت عنها وكالة المخابرات المركزية في كل ما دبرته من اغتيالات فردية لبعض الزعماء الثوريين من امثال المهدي بن بركة وبياتريس لومومبا ، وكل ما دبرته من انقلابات في اسيا وافريقيا كهذا الذي حدث في غانا واندونيسيا ، بل وفي اوروبا كهذا الذي حدث في اليونان . واخيرا هذا العدوان الذي دبرته بخبث ودهاء شديدين ضد البلاد العربية . وهنا ـ بالتحديد ـ برزت امريكا كاقوى دول العالم سياسيا حين نمكنت ضغوطها الرهيبة في الامم المتحدة ان تمنع المجتمع الدولي من ادانة اسرائيل وانسحابها من الاراضي التي احتلتها . ان هذا الموقف وحده يوضح معنى ان تكون امريكا اقوى دول العالم سياسيا . ولقد كان مدهشا للبعض ومذهلا للبعض الاخر ان تتخذ دول افريقية معينة موقف المعارضة للدول العربية في حقها المشروع بسحب قوات الاحتلال الاسرائيلي من مواقع عدوان ٥ يونيو . الا ان الدهشة سرعان ما تزول اذا عدنا الى ظاهرة الاستعمار الجديد ، وهي الظاهرة التي ابدعتها القريحة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية حين احتلت الولايات المتحدة مركز القيادة الاستعمارية في العالم على اثر الخسائر والانهيارات التي منيت بها مراكز الاستعمار التقليدية في بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا واسبانيا والبرتغال . وهي الظاهرة التي تتحفظ في استخدام الشكل العسكري للاستعمار مكتفية في الظروف العادية باستخدام الشكل الاقتصادي على اوسع نطاق ممكن ، وذلك بربط الدول الحديثة الاستقلال بعجلة الاحتكارات الامريكية التي تتحكم بدورها في مقدرات شعوب هذه الدول بتوجيه اقتصادها وجهة التابع للمتبوع . وبالتالي، ليس غريبا ان تتحكم فيها سياسيا وهي تدلي باصواتها ـ في سرية تامة ! ـ في صناديق الانتخاب بالمنظمة الدولية . امريكا اقوى دول العالم سياسيا اذن ، بمعنى انها تستطيع ـ عن طريق القهر الاقتصادي ـ ان تضغط سياسيا على مجموعة الدول التي لم تتمكن بعد من الحصول على استقلالها الاقتصادي ، ولم تعرف بعد كيف تشق طريقها الى التنمية ، الدول التي لم تتمكن ـ لاسباب عديدة ـ من اكتشاف همزة الوصل بين الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية . ولكن العالم الثالث ـ بالرغم من كل ما وجه ويوجه اليه من ضربات ـ هو الظاهرة المقابلة لظاهرة الاستعمار الجديد ، الظاهرة التي حاولت وتحاول ان تجد صياغة عصرية لالتحام الثورة الوطنية بالثورة الاجتماعية في الطريق الطويل نحو الاشتراكية . فاذا كانت السياسة الامريكية قد نجحت حينا في السيطرة على مخططات بعض الدول المتحررة حديثا ، فانها لن تنجح مع البعض الاخر ولن تنجح في كل الاوقات . ومن ناحية اخرى فان السياسة الامريكية تحرز بغير شك جولات عديدة رابحة عن طريق استغلال الصراع الصيني السوفياتي الذي شارك في اضعاف حركة النضال الثوري للشعوب ، ولكن الابتزاز النووي الامريكي سرعان ما يدفع كلا الفريقين الى المواجهة المشتركة للتحدي الاستعماري خاصة وان الصين ـ بعد امد يقصر او يطول ـ ستكون قوة عسكرية وسياسية ترتفع الى مستوى القطب الموجه سياسيا لحركة المجتمع الدولي . هذه التحفظات جميعها تتطلب منا التريث قليلا ونحن نمنح امريكا هذا اللقب المسمى باقوى دول العالم سياسيا . كما تتطلب من ضميرنا الفكري ان يعيد النظر في صياغة « القوة الامريكية » وان يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا ـ موضوعيا ـ الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك مع حقيقة الامر الواقع .

ويمكن ان يقال اخيرا ان امريكا اقوى الدول حضاريا .. تشهد بذلك آيات تقدمها العلمي والفني . وهذا ما لا ينكره احد ، فالتقدم التكنولوجي يصل الى ذروته العليا في عالم اليوم بالولايات المتحدة الامريكية . ولكن مقياس الحضارة الانسانية لم يكن في يوم من الايام هو التقدم التكنولوجي وانما ظل المقياس دائما هو « الانسان » : مدى وعيه بذاته والكون المحيط به ، ومدى قدرته على تغيير ذاته والكون المحيط به . وظل منسوب الوعي وارادة التغيير بمثابة العمود الفقري للحضارة عبر تاريخ البشرية الطويل . ولا اعتقد ان الامريكيين انفسهم يزعمون انهم شعب عريق الحضارة . وانما هم قوم وافدون الى هذه الارض الغنية بطبيعتها منذ فترة قصيرة في تاريخ الامم لا تتيح لهم ان يصنعوا تراثا او جذورا . ولقد عمدت علاقتهم بالارض الجديدة بالدم ، ودشنت بالعنف . من هنا كانت « حضارتهم » في نشأتها صراعا دمويا يخلق اول ما يخلق معنى السيادة والعبودية .. وهو المعنى الذي يوجز « الحضارة الامريكية » في كلمتين .. فليس ثمة تناقض بين ان تكون امريكا « ارقى » الدول تكنولوجيا ، وبين ان تكون « احط » الدول فكريا واخلاقيا . فهي معقل الاضطهاد العنصري بسبب اللون ، وهي قلعة الجريمة والجنون ، وهي رائدة الاستعمار الجديد . معنى ذلك ان

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ

امريكا اقــوى دولــة فــي العالم

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٤ ـ

غياب التراث الحضاري مــن اعماق الوجدان الامريكي ، يدفعه الــى السلوك وفق التكوين القريب الابعاد الذي ترسب على السطح فــي شكل طبقة حضارية رقيقة هشة ، هي الطبقة التي تحتوي على عناصر القتال والغزو والبطولة الفردية والتفوق العنصري ، وهي الطبقة التي لا يملك الامريكي المعاصر غيرها ، فهو يستمد منها قيمه ومثله واخلاقياته.

وهو اذا اخلص في الاجتهاد والبحث عما هو اعمق مــن هــذه الطبقة الرقيقة الهشة لن يجد سوى الفراغ المرعب ، او الصراع الاخر الدامي بين الكاثوليكية والبروتستانتية الذي ارغمه ضمن عوامل اخرى على الفرار والغزو . امريكا لذلك تهمل عن عمد الوعي بالذات ، لان هــذا هذا الوعي يقودها الى مجاهل ومتاهات بغير بوصلة هادية او نــور خافت . هي تخشى الوعي بذاتها ، لانها لا تملك ذاتا حضارية بالمعنى العميق الشامل . وهي لنفس الاسباب تخشى التغيير ، هي لا تــرى الانسان ولا الكون في حالة حركة او صيرورة او تحول ، وانما تراهما في حالة سكون فدري شبيه بالموت ، او بالحياة كما عانقتها لاول مــرة ..

ومن هنا كانت الذات الامريكية المعاصرة هي امتداد « كمي » للــذات الامريكية منذ قرنين من الزمان ، الذات اللاهثة وراء الكنــز المجهول ، الذات التي تعيش على جثث الاخرين . واذا كانت امريكا غير قــادرة على تغيير ذاتها ، فماذا اذن بشأن الكون ، وهــو حقيقــة موضوعية مستقلة عن ارادتها ؟

لقد تطورت بغير شك علاقة امريكا بالعالم المحيط بهــا ، لا لشيء الا لانها لم تولد منذ البداية على هذه الدرجة من القوة التي تواجه بها العالم اليوم . تطورت علاقتها بالعالم دون ان يكون هذا انعكاسا لتطــور تفكيرها الخاص . هذا التفكير في جوهره لم يتغير ، وانمــا الذي كان يتغير هو العالم من ناحية و « قوتها » من الناحية الاخــرى ، هكــذا نستطيع ان نفسر لماذا كانت امريكا في وقت من الاوقات احدى الــدول المتحالفة ضد الفاشية والنازية . ثم تحولت فيما بعــد الى امريكــا المكارثية في الداخل ، وامريكا فيتنام في الخارج . اي اننا نستطيع ان نفسر كيف « تطورت » البلد التــي سبق لهــا ان ناضلت من اجــل الديموقراطية الى ان اصبحت بلدا قائدا للظاهرة النازية الجديــدة ، ظاهرة الحرب العنصرية فــي الداخل ، والحروب الامبراطورية فــي الخارج . ان امريكا ـ حضاريا ـ هي اعتى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في التاريخ القديم ، وهزيمة بونابرت في التاريخ الحديث . ومعنى هــذا ان التقدم التكنولوجي المذهل الذي تتمتع به الولايات المتحدة يمتنع عــن ان يكــون عنصرا حضاريا في البناء الامريكي لانه لا يسهم في عملية الوعي او في ارادة التغيير ، وانما يوظف في اكثر جوانب الحياة الانسانية سلبا وتخلفا ، وهو دمار الجنس البشري. فالوعي والتغيير عمليتان اجتماعيتان تهدفان الى خلق الحضارة بمعناها الانسانــي الرحب ، والتقــدم التكنولوجي وحده يهدف الى خلق الحضارة بمعناها الالي المعملي الضيق . والتقدم التكنولوجي في ظل الاحتكارات الامبريالية لرؤوس الاموال الامريكية هو مزيد من التخلف الحضاري للشعوب المتخلفة ، وهــو يشكل عرقلــة حقيقية في وجه التقدم الحضاري لامريكا نفسها . فالنظام الاجتماعي المتخلف موضوعيا ـ وهو الرأسمالية ـ هو النظام السائــد والقائــد للتكنولوجيا الامريكية . واذا كانت الرأسمالية عند ظهورها تمثل « ثورة حضارية شاملة » فان الولايات المتحدة لم يكن لها النصيب الاوفر فــي صنع هذه الثورة ، لقد كانت المانيا وانجلترا وفرنسا ـ اي اوروبا ـ هي الصانعة الحقيقية للثورة البرجوازية . ولم يبق لامريكا حق التفاخــر الحضاري في اي عصر من العصور لانها لم تشارك عمليا فــي المراحل الثورية لبناء الحضارة . امريكا اذن اقوى الدول حضاريا ، بالمعنــى التكنولوجي وحده ، وهو المعنى الذي يفرغ كلمة الحضارة من مضمونها الايجابي وجوهرها الانساني على السواء . وهو المعنى الــذي يدعــو ضميرنا الفكري ان يعيد النظر في صياغة « القــوة الامريكية » وان يعدل هذا التعبير اذا اضطررنا ـ موضوعيا ـ الى هذا التعديل ، واذا لم يتعارض ذلك مع حقيقة الامر الواقع .

فاذا لم تكن امريكا « اقــوى دول العالم » اقتصاديا وعسكريــا وسياسيا وحضاريا الا في حدود هذه المجموعة الهائلة من التحفظات ، فان هذا يعني شيئا واحدا هو انها ليست قوية ، ذاتيا » وانما هي تقوى بالوقود الخارجي الذي يجعل من فيتنام سوقا للسلاح تنعش مصانــع الاحتكاريين مهما بحت أصوات المثقفين بان هذه الحرب هي عار العصر، ومهما امتنع الشباب الامريكي عن التجنيد لانه لا يريد ان يموت بهــذا الثمن البخس . ولان الولايات المتحدة ـ مثل غيرها ـ تعرف جيــدا « المصدر الحقيقي » لقوتها و « المعنى الحقيقي » لهذه القوة ، فانهــا تلجأ احيانا كثيرة الى اسلوب « متحضر » في اقناع الاخرين « بفلسفة نظامها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، بــل والعسكري . هــذا الاسلوب المتحضر هو « الفكر » .. فلان الولايات المتحدة ـ ومعها الغرب الاستعماري ـ باكمله ـ تعاني افلاسا فكريــا مروعا ، ولان الذيــن يصفونها باقوى دولة في العالم ، لا يجــدون الشجاعة الكافية التــي تجعلهم يضيفون الى صفات قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية قوة الفكر ، لذلك كله ، فانها تكرس مجهودا هائلا لصناعة الفكر الامريكــي وتصديره الى مختلف بلدان العالم ، خاصة تلك التي عرفت طعم الحرية حديثا ، وتلك التي انزاح عن كاهلها الاستعمار التقليدي ، وتلك التي تتوق الى التحرر وتناضل من اجله ..

هذه الصناعة الفكرية لا تقل اهمية وخطورة عــن مصانع السلاح التي تزدهر كلما اشتد لهيب الحرب في فيتنام ، كذلك صناعة الفكــر الامريكي تزداد ازدهارا كلما اشتد في بلاد كبلادنا لهيب الجدل حــول معنى الديموقراطية والاشتراكية والتطــور الاجتماعي والاستقــلال السياسي والحرية الاقتصادية .. الى غير ذلك مــن قضايا تفرضها علينا طبيعة المسيرة الوطنية والاجتماعية التي نحشد لهــا كل قوانا .. وتحشد لها « القوة الامريكية » كل اسلحتها الفكرية . وكما أن الولايات المتحدة لم تشارك في صنع الثورة البرجوازية ، فانها لم تشارك ايضــا في صياغة هذه الثورة فكريا .. ويكاد المرء لا يجد مذهبا له قيمته في مجال الفكر تستطيع امريكا ان تتقدم به الــى حلبة الفكــر الانساني العالمي . فباستثناء البراجمانية في ميدان الفلسفة التي اتى بها وليم جيمس ، وباستثناء المدرسة الارتقائية في ميدان التربية التي اتى بهــا جون ديوي ، لن نجد في صفحة الفكر الامريكي ما يستحق الذكر سوى تجارب الادب والفن التي تلطخ وجه امريكا بالعار .. حتى اذا اشتدت وطأة العار تمكن الدولار من شراء شتاينبك ورايت وفاست وغيرهم مــن معسكر « الانسانية » الى معسكر « الحرب في فيتنام » و « الحــرب العنصرية » وغيرها من حروب الامبراطورية الجديدة . ليس هناك اذن من يقول ان امريكا اقوى دول العالم « فكريا » ، ومــع هــذا فسادتها وساستها يتحرقون الى « تبرير فكري » منطقي ومعقول يقدمونه الــى العالم ، انهم في امس الحاجة الى « ايديولوجية » « تنظر » لاستعمارهم الجديد . ولما كانت الرأسمالية العالمية كلها تعاني افلاسا ايديولوجيا حادا ينعكس على اداب اوروبا الغربية فيما تنادي به مــن يأس وعبث واختناق ولا معقول ، فان الولايات المتحدة قائدة هذه الرأسمالية تكتشف فجأة انها في مأزق حرج لان قيادتها السياسية والعسكرية والاقتصادية لا ترتكز على سند فكري « قوي » يناطح « قوتها » التي تزهو بها علــى العالم . ولذلك فهي تنفق بسخاء وكاله المخابرات المركزية على هــذا الجانب الخطير من جوانب حياتها ، فتفتح الجامعات والمعاهد العليــا والمجلات الثقافية والصحف وقاعات المحاضرات والمعابد الدينية داخــل

امريكا وخارجها ، وتحت اسماء علنية واخرى سرية ، وفي ظل الرعاية الامريكية مباشرة ، او في ظل غيرها من الدول التابعة بصورة غير مباشرة . وتسلك امريكا « الفكرية » بين الشعوب الاخرى سبلا شديدة الالتواء والتعقيد حتى تبدو في مظهر حامي حمى حرية الفكر والتعبير.. وتحت ستار « حرية البحث العلمي » و « التجربة الحرة » و « ارادة الخلق والكشف » تخفي امريكا عجزها الايديولوجي وانعدام قدرتها على اقناع الاخرين بالحسنى ، اي بالفكر الخالص . فالبراجماتية نفسها وهي تجعل من « المنفعة » غايتها ، انما تؤكد خلو « الفلسفة » الامريكية من اي غاية انسانية اشمل من المصلحة الاستعمارية العابرة للولايات المتحدة . وانه لمن سوء حظ الفكر الامريكي حقا ، ان تتحقق له وسائل النشاط الوافر دون ان تتحقق له اية اهداف عليا لهذا النشاط ، فقد وفد ازدهاره الشكلي (او حركة صناعته وتصديره بمعنى ادق) في مرحلة تاريخية محددة في حياة الرأسمالية العالمية ، هي مرحلة «الافول» و « الخاتمة » مهما تشبث الاستعمار بمناطق النفوذ ، ومهما تشنجت ادواته الجهنمية في ضرب الشعوب . واذا كان يحق لبلد مثل فرنسا او انجلترا أن تتصور أن لديها « بقايا ايديولوجية » من رصيدها الحضاري العريق ، ومن مشاركتها في صنع الثورة البرجوازية الديموقراطية ، فان الولايات المتحدة كما قلت ، لا يحق لها ان تفخر بذلك الرصيد السطحي القريب الابعاد الذي تشكل من طبقة حضارية رقيقة وهشة مكوناتها الرئيسية هي الفرار من وجه الاضطهاد المذهبي والغزو الدموي للارض الجديدة . هذه الطبقة الراسخة في الضمير الامريكي بالرغم من رقتها وهشاشتها ، هي التي تمده سياسيا وعسكريا واقتصاديا بوجود « الصراع الدموي » محليا وعالميا ، ولكنها في مجال الفكر ـ وهنا التناقض الحاد ـ لن تمد امريكا بما تستطيع ان تتباهى به على العالم ، او ما تستطيع ان تقنع به العالم . على ان هذه الطبقة الحضارية الدامية قد الهمت اجهزة الفكر الامريكي « الشكل » دون المضمون .. الهمتها وسائل الحرب والغزو والصراع الدموي . لذلك كانت « الحرب الفكرية » خطا موازيا للحرب العسكرية المسلحة التي تشنها الولايات المتحدة في مختلف بقاع العالم . وقد استلهمت هذه الحرب ـ من حيث المضمون ـ ظاهرة الاستعمار الجديد في التخفي والالتواء والتستر .. اي في ربط مقدرات الشعوب النامية بعجلة الامبراطورية الامريكية ، دون تدخل سافر يدعو الى الاستفزاز .

***

والحديث الذي يدور هذه الايام حول « القوة الامريكية » انما هو يثمر في طرف من اطرافه ثمار الحرب الفكرية التي شنتها الولايات المتحدة الامريكية على بلادنا طيلة السنوات الماضية . يثمر « الجزع » من « اقوى دولة في العالم » لدرجة اليأس من ضرورة النضال ، بالرغم من ان هذه « القوة » قد نالت ضربات متوالية على طول مراحل نموها ، وبالرغم من ان تعبير « اقوى دولة في العالم » لا يصلح موضوعيا للتعبير عن حقيقة امريكا الاستعمارية . ويثمر القول بان عدونا هو « اسرائيل » اولا واخيرا ، وانه لولا مساندة الولايات المتحدة لاسرائيل لكنا اصدقاء لامريكا « نصيرة الشعوب والحرية » ويضيفون « فيما مضى » من قبيل التحفظ الساذج . هذا على الرغم من ان الدور الذي لعبته امريكا في العدوان الاسرائيلي لا يختلف الا من حيث المظهر ـ وهو شديد الخبث والدهاء ـ عن اي عدوان او انقلاب دبرته وكالة المخابرات المركزية في أي بلد اخر من بلاد العالم . وبالرغم من ان لاسرائيل وجودها الذاتي المستقل ، ـ الذي يجب ان نعمل له حسابا دقيقا ـ الا ان هذا لا يتعارض مع الوجود الامريكي داخل اسرائيل للدرجة التي تحولت بها الى ترسانة عسكرية امريكية . ويثمر القول بان الصهيونية هي التي تتحكم في سياسة الولايات المتحدة ، والادق ان يقال العكس ، وهو ان الولايات المتحدة هي التي تستغل الحركة الصهيونية لمصلحتها ، فالعنصرية ـ وهي عماد الحركة الصهيونية ـ هي ايضا العمود الفقري الراهن للاستعمار الامريكي داخل حدود بلاده وخارجها . ويثمر القول باعادة النظر في جبهتنا الداخلية على ضوء ما يسمونه الان ـ والان فقط ـ بسيادة القانون . ومن يتابع العناوين الرئيسية في صحفنا اليوم والمناقشات الدائرة حول الديموقراطية على وجه خاص ، يشعر حتى النخاع بان الحرب الفكرية الامريكية قد اثمرت ، ولا جدوى على الاطلاق من انكار ذلك . فقد كرست امريكا لهذه الحرب جهودا هائلة لا تقل عن جهودها العسكرية في احيان كثيرة . بل لان « قوتها الفكرية » موضع شبهة حتى من اصدقائها ، فان حربها الفكرية كانت اكثر ضراوة من حروبها العسكرية في بعض الاحيان . يكفي أن خبثها ودهاءها الشديدين في العدوان الاسرائيلي الاخير ، كان تاليا بزمن طويل لخبثها الاكبر ودهائها الاعظم في عدوانها الفكري على طول جبهة العالم الثالث بشكل عام ، والمنطقة العربية بشكل خاص . على انه بالرغم من ضراوة الحرب الفكرية التي شنتها وتشنها امريكا ضد الشعوب ، فانها تكاد تقتصر على ضراوة « الشكل » الذي يتخذ من الصراع الدموي مثلا يهتدى به . اما المضمون الكسيح الذي لا يقف على قدمين فهو الفكر الامريكي المفلس الذي يحتاج كثيرا الى ما يسنده ... من القوات الامريكية المسلحة . ولعلنا نلاحظ انعكاسات هذا الفكر على المناقشات الدائرة الان ، فنرى ان ثماره التي اثمرها ـ بضراوة الحرب التي اعلنتها خبث وسائلها والدهاء في تنفيذها ـ جاءت تعبيرا موضوعيا امينا عن بنائه المتهالك الذي لا يقيمه المزيد من الترميمات . فهو ليس الا فتاتا متناثرة : فكرة من هنا وفكرة من هناك ، لانقاذ ما يمكن انقاذه من جدران البيت الآيل للسقوط . وهذه تماما صورة الاتجاه الفكري الذي ينطلق في بلادنا بعد النكسة الاخيرة ، بقصد الترميم : فكرة من هنا وفكرة من هناك حتى يظل البناء واقفا على قدميه ... اي على ما هو عليه .

القاهرة — غالي شكري

صدر حديثا

دراسات

في الأدب الجزائري الحديث

تاليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب